**خواطر معماري بين مسقط والقاهرة**

د. وليد أحمد السيد

معماري أكاديمي مدير مركز دراسات العمارة الإسلامية - لندن

علا رنين الهاتف النقال بشقتي بمنطقة الخوير بوسط مدينة مسقط في منتصف شهر آذار وقد لاحت بوادر الحر قبل عامين, وتدافعت قدماي بنشاط لوقف الرنين ولإجابة من تسبب في إطلاق نغمة "عربنايت" Arabnite – تلك النغمة النادرة التي أنقذت الهاتف "آنذاك" من مصير الإستبدال المتكرر المحتوم الذي تتعرض له معظم الهواتف النقالة هذه الايام, إذ ما زلت وفيا لهذه الآله بسبب هذه النغمة العربية الأصيلة التي تذكرني بألف ليلة وليلة بالرغم من إغراءات الحداثة المتسارعة أسبوعيا وبجنون في عالم الهواتف النقالة. وطالعني بشاشته المضاءة بلون برتقالي إسم الصديق السيد أحمد بن صالح باعبود إذ كنا على موعد ذلك المساء من يوم الخميس لقضاء بقية اليوم والليلة بمزرعة خارج مسقط مع بعض الأصدقاء. "آلو, نحن في الطريق اليك بعد إتمام التسوق من اللحم للشواء والأسماك وبعض التوابل وغيرها". "حسن جدا, سأكون بالإنتظار بعد دقائق في ردهة البهو الأرضي للعمارة". وعاد الهاتف لصمته وقبع متصلا بالشاحن الكهربائي بسكون.

بعد أن اكتملت حمولة السيارة القوية ذات الدفع الخلفي, ربض الصديق السيد نجيب المرهون خلف عجلة القيادة وقدماه تداعب بدالة السرعة والإبطاء كما يمليه عليه الطريق المكتظ نسبيا بالرفاق من السيارات الأخرى وبجانبه صديقنا أحمد باعبود, ووجدتني جالسا في المعقد الخلفي بجانب الصديق الكابتن عبد الله المرزع والرفقة الطيبة. وأطلق نجيب العنان للسيارة بإتجاه مزرعة صديقنا الكابتن والتي تبعد مسافة أقل من نصف ساعة بالسرعة المعتدلة؛ ولا أعني هنا السرعة التي تبناها نجيب إذ انطلقت السيارة مولية ظهرها لمدينة مسقط لا تلوي على شيء بناء على تعليمات قدميه. وما هو إلا وقت يسير حتى دلفت السيارة بركبها من مدخل المزرعة ووجدتنا نترجل منها نتمطى ونحرك أرجلنا التي بدأ يدغدغها الكسل.

تحسست أقدامنا الدرجات الثلاث اليتيمة التي استقبلتنا أمام الكوخ الذي يتوسط المزرعة والتي كانت تسبح في بحر من الظلام الدامس. وسارع الكابتن لأحد الفوانيس لتحرير فوتونات الضوء كي تبدد قطع الليل الدامسة التي انتشرت بأرجاء المزرعة على حين غفلة من أهلها. وما أن امتدت خيوط النور في محيط ساحة الكوخ الأمامية حتى تيقظت على الفور لدي أحاسيس العمارة السادسة لقراءة ما تستقبله حواسي الخمس الأولى. ولفت انتباهي, عدا عن تواضع الكوخ من ناحية معمارية, أن الكوخ تحيط به أربع ساحات صغيرة من الجهات الأربع بما يشبه شكل الزائد الحسابي. أما الاولى فكانت أشبه بمخزن السيارات, أو بالأحرى الطائرات, ولها وظيفة مهمة في النهار, كونها مغطاة, لتوفير الظل بمنأى عن حرارة الشمس الملتهبة. أما الثانية, والتي تطل على بركة السباحة الخارجية التي كانت ترتفع حوالي مترا ونصف عن الأرض, من أجل الحماية من الغبار والأتربة وأوراق الشجر المتساقطة, فتستعمل في الليل لمطالعة نور القمر. وفي هذه الساحة في تلك الليلة القمرية جلسنا نتسامر تارة ونستمع لأنغام العود الذي أحضره نجيب تارة أخرى. وبين هاتين "التارتين", كانت قطع لحم الشواء اللذيذ يغيبها الجوع في معداتنا التي ما عادت تقاوم إغراءات رائحة الشواء النفاذة. وبينما كانت تلك المأدبة تدار برعاية صديقنا الكابتن, كانت أصابع الصديق نجيب تداعب بمهارة أوتار العود فيما راح يشدو مقطوعات كلاسيكية لأم كلثوم تارة ولعبد الحليم تارة أخرى. وفي التارة الأولى كان بمقدرونا تمييز مقطوعات من "الأطلال", أما في التارة الثانية, فقد غابت كلمات نغم "فاتت جنبنا" عن ذاكرة صديقنا نجيب, إذ استبدلها بكلمات "مشت معاه", مما أضفى جوا طريفا حيث تعالت الضحكات والتعليقات الظريفة.

الساحة الثالثة من الجهة المقابلة كانت تستعمل "كمذبح", وذلك في حالة إحضار خروف أو شاة صغيرة من شياه صلالة الشهيرة ذات اللحم الغض الدسم والتي يتم شواؤها على حجارة البحر, والتي تسمى باللغة المحلية "المظبي", حيث تتحول الى "فحم موقد" بفعل الحرارة المنبعثة من طبقات الفحم التي تتخللها, مما يكسب اللحم المشوي طعما خرافيا, ويعد من تراث مأدبات الشواء العماني بما يعادل شهرة المنسف الأردني. وأثناء كل ذلك الجمال والمتعة في أحضان الطبيعة يدور بصري بأرجاء المكان فلا أجد الا روعة الطبيعة, بخلاف ما تنطق به ما امتدت اليه يد المعماري التعس وبما يقوم به الإنسان الذي لا يتمتع بالذوق أو الحس المرهف من تدمير للطبيعة, والذي نجت منه الساحة الرابعة الخلفية, التي حافظت على جمالها الطبيعي ولم تعبث بها يد الإنسان.

وبين أنغام العود ورائحة الشواء, وبين خواطر العلاقة بين الجمال الطبيعي ويد الإنسان التي ينبغي أن تكون مرهفة الحس والذوق, عادت بي الذكريات إلى العام 1993 أيام كنت في القاهرة أعمل على مشروع تطوير منطقة الجمالية شمال القاهرة الفاطمية مع راسم بدران وعبد الحليم ابراهيم – عملاقي العمارة العربية المعاصرة. فقد دعانا صديقي المعماري رجائي سعيد لزيارة بيت الرسام حامد سعيد الذي صممه المعماري الشهير حسن فتحي. ووجدنا انفسنا نشد الرحال لمزرعة الرسام حامد سعيد بالمرج. وما أن اقتربنا من البيت حتى بدأت دقات قلبي تنبض سريعا إذ أدركت أنني أطالع معالم قبة البيت الشهير الذي تسابقت كتب العمارة العربي والعالمية لإستضافة صورة أو اثنتين, من داخله أو خارجه, وفاء لذكرى مجدد العمارة العربية الراحل حسن فتحي. وجلسنا في ظل المنزل نستمع لما يقصه علينا من ذكرياته في بناء البيت مع عملاق المعماريين العرب حسن فتحي, وكيف أن البيت كلفه ما يقارب أربعين جنيها مصريا, فيما لا تكلف أعمال الصيانة السنوية شيئا يذكر للبيت المبني من الطين والذي يستعمله الفنان وزوجته كمنزل ومرسم. فيما راحت زوجة الفنان حامد سعيد تسعف ذاكرته بين الحين والحين وتقوم برعايتنا كمضيفة كريمة. وعدت من أفكاري البعيدة في أطراف القاهرة الريفية الجميلة, وأفقت من تأملاتي على صوت صديقنا الكابتن إذ طلب مني أن أعمل له دراسة لمنزل ريفي صغير يراعي جمالية المكان ووعدته بذلك.

واستحضرتني بعض الدراسات التي أجريتها والتمارين التي مرنت يدي عليها قبل عقد من الزمان في مثل هذا النوع من العمارة الريفية التي تحتاج لحساسية وشفافية في التعامل مع المحيط من الطبيعة الجميلة وبحيث تتسم بالبساطة وبما لا يخدش حياء الطبيعة وبكارتها. فأية معالجات في خضم هذا الجمال ينبغي أن تنطلق من أبسط قواعد الجمال على الإطلاق. ومن العجيب أن المعماريين أو بعضهم للإنصاف يمارس العمارة بجانبها "اللاواعي" أو non-discursive بطريقة عجيبة, إذ يعمد أحدهم لإستعمال القوس إن هو أراد أن يضفي جمالية على تصميمه. وأخال بعضهم يعمد لذلك ظنا منه أنه يمثل العمارة الإسلامية وهو يجهل تماما ما يعنيه القوس كشكل هندسي محض, ولذا يحق القول هنا أنه رب رمية من غير رام. فالقوس والأشكال المنحنية تعني في التشكيل الطبيعي والهندسي "الجمال" فيما يعني الخط المستقيم "الصرامة والجدية والرسمية". هلا نظر أحدنا الى جميع الأشكال المنحنية الطبيعية التي تتسم بالجمال إبتداء من التكور والإنحناءات في الجسم البشري من تكور العين الإنسانية وغيرها من الأعضاء البيولوجية البشرية؟ هل يمكن لأحدنا أن يتخيل كم يكون الإنسان "روبوتيا" لو كانت خطوط جسمه مستقيمة بلا إنحناءات؟ ولذلك فالمعماري "غير الواعي" الذي عمد لإستعمال القوس والأشكال المنحنية الطبيعية أراد أن يضفي الشرعية على استعماله هذا فقال: هذه عمارة إسلامية, أو هذا قوس إسلامي, وما درى التعس أن هذا الشكل المتقوس هو شكل جمالي طبيعي إنطلاقا من القاعدة الأساسية التي تقول: The curve is the line of beauty, and the straight is the line of duty . وبكلمات عربية فصيحة (المنحنى هو خط الجمال فيما المستقيم هو خط الوظيفة). وهذه ليست بحال دعوة لإستعمال المنحنى على إطلاقه إنما ينبغي أن يتمتع المعماري بحس مرهف وقدرة على استقراء المحيط وأن يوسع ثقافته المعمارية الأولية على مستوى الهندسة الأولية وليس من عيب في ذلك, إنما الجهل هو العيب والمصيبة هي ترك بصمات ثقافية على وجه الحضارة تزيد من التخبط أو التغريب الثقافي أو نسبة معايير جمالية فطرية للعمارة الإسلامية كتشكيل بعيد عن المضمون أو التشكيل الهندسي الفراغي الوظيفي. ويحضرني قول أحد الأساتذة من مصر الشقيقة والذي كان استاذا لنا في مراحل دراسة العمارة الأولية وهو الأستاذ أحمد سامي سنبل, أحسن الله اليه, وهو من جيل حسن فتحي إذ كان يوصينا قائلا: عليكم أن تنظروا للمسقط الأفقي والتشكيل الفراغي للمخطط المعماري, كلوحة فنية إبتداء, إن استساغته العين وانتظمت العلاقات الهندسية به فذلك أكثر من نصف الشوط, وإن كان هناك من علاقات هندسية نشاز أستتبع ذلك علاقات ومشاكل بالتخطيط والوظيفة. ولذا وصف حسن فتحي العمارة بقوله: "العمارة هي موسيقى متجمدة", ويا له من وصف بليغ وحس رقيق مرهف لجماليات العمارة يتجاوز أبعد من مجرد قوس على وجه عمارة جوفاء تدعي نسبها للعمارة الإسلامية مما تحفل به بعض عمائرنا اليوم!

وليد احمد السيد
لندن في 18 – 06- 2008